في مجابهة التشكيك العربي والتضليل الاعلامي الامريكي:

مستقبل المقاومة العراقية

معن بشور *

■ في مثل هذه الأيام قبل ثلاث سنوات، وفي ساحة الفردوس القريبة من فندق فلسطين، الذي كان مركز تجمع مراسلي وسائل الإعلام الذين تجمعوا بالمئات لتغطية أخبار الحرب الأمريكية ـ البريطانية على العراق، انطلقت القذائف الأولى لحرب العراقيين على الاحتلال، ولتعلن على مرأى من هذا الحشد الإعلامي أن الساحة التي اختارتها قوات الاحتلال لتعلن من خلالها إعلامياً سقوط عاصمة الرشيد عبر إسقاط مبرمج لتمثال الرئيس العراقي عبر عملية مخططه مسبقاً، كما تبين لاحقاً، قامت بها احدى شركات العلاقات العامة الأمريكية، هي ذاتها الساحة التي انطلقت منها المقاومة.

وعلى الرغم من أن المحتل وعملاءه حاولوا إغراق هذه العملية الرمزية، التي كان لها مثيلات في أنحاء متعددة من العراق لم يسمع بها العالم، بسيل من عمليات السطو والنهب والسرقة المنظمة التي عمت المدن العراقية ومتحف بغداد والمرافق العامة والمكتبات والجامعات والمختبرات والمؤسسات العربية، إلا أن من يعرف الشعب العراقي بوطنيته العالية، وبشجاعته المميزة وايمانه العميق، وبعنفوانه الذي يأبى له الخنوع والإذعان، كان متأكداً أن هذه الرصاصات تعلن ولادة عصر جديد في حياة العراق والأمة والعالم بأسره.

واذكر أن الكثير من التشكيك والسخرية والإشاعات المغرضة قد واجهتنا في «الحملة الأهلية لنصرة فلسطين والعراق» ونحن ندعو إلى «مهرجان الدعم للمقاومة العراقية» في قاعة الاحتفالات الكبرى في الأونيسكو في 18 نيسان (ابريل) 2003، أي بعد اقل من عشرة أيام على احتلال بغداد، والذي حضره الآلاف من المواطنين وتكلم فيه ممثلو القوى المشاركة في الحملة الأهلية وسط حصار إعلامي خانق تخلله تشويه متعمد لهذه التظاهرة القومية يحمل في طياته تبرما «متوترا» من هذا الإصرار على متابعة التضامن مع العراق المحتل، بعد تضامننا مع العراق المحاصر لأكثر من 13 عاما، ومع العراق المواجه لأشرس عدوان وغزو على مدى أسابيع ثلاثة.

لم يكن ذلك الحصار الإعلامي مجرد تعبير عن رغبة محمومة ومدفوعة الأجر في صرف الأنظار تماما عن كل ما يتعلق بالعراق فقط لكي يستتب الأمر للمحتل وأدواته الإمساك الكامل بمقاليد العراق ومقدراته، بل كان أيضا جزءا من خطة إعلامية كبرى أنفقت عليها المليارات، واستخدمت فيها، وما تزال، كل وسائل التعتيم والتضليل والتشويه تنفيذا لتكتيك إعلامي شهير أرسى قواعده غوبلز الشهير وزير إعلام هتلر على أساس «أن تكذب.. وتكذب.. وتكذب، فلا بد أن يصدق الناس بعض كلامك».

غير أن الكذب هذه المرة كان يعتمد على آليات التطور الهائل في وسائل الاتصال والإعلام ونقل المعلومات، وكان منخرطا فيه رئيس الدولة الأكبر جورج دبليو بوش ومعاونوه الذين لم يخرجوا من كذبة على شعبهم والعالم الا ليدخلوا في كذبة أخرى، فكانت الأجواء المهدة للعدوان ملوثة بمزاعم كاذبة، وكانت الأجواء المرافقة للعدوان مليئة بالمعلومات الكاذبة، تماما كما كانت الأجواء اللاحقة للعدوان محشوة بادعاءات ووعود كاذبة يستغرق سردها ساعات طويلة، لعل أبرزها دون شك الادعاء بنشر الديمقراطية في العراق وسط سموم المفردات والمصطلحات والمخاصصات العرقية والطائفية والمذهبية، وفي زنازين أبي غريب وكوبر والمئات غيرها من المعتقلات الأمريكية والبريطانية وملاجىء وزارة الداخلية، تماما كما الوعود المتلاحقة بالقضاء على المقاومة خلال أسابيع، وبعد كل عملية أمنية كبرى، يعطى لها اسم، خاص مطعم بكل أنواع الخناجر والرماح، والتي لم تترك مدينة عراقية في الشمال والغرب والوسط والجنوب العراقي، إلا وعرّصتها لدمار منهجي شامل، استخدمت فيها أسلحة محرمة دوليا، كالفسفور الأبيض في الفلوجة، ومع ذلك لم تكن تلك العمليات تنتهي إلا ويخرج المجاهدون منها أكثر قوة، وأكثر عزيمة على ملاحقة العدو.

وكلكم يذكر تلك الحملة الواسعة من التضليل الإعلامي التي كان يقوم بها المحتل اثر أية عملية اعتقال أو اغتيال موحيا انه قضى بها على رأس المقاومة، وان نهايتها باتت قريبة وحتمية، ليكتشف العالم كله أن المقاومة باتت أكثر قوة واندفاعا لانها مقاومة شعب باسره، قبل ان تكون مقاومة فرد او قائد او حزب او جماعة.

الم تسمعوا بالضربات القاصمة للمقاومة بعد اعتقال نائب الرئيس العراقي طه ياسين رمضان ثم بعد اغتيال الشهداء عدي وقصي ابني الرئيس العراقي الاسير وحفيده الشهيد مصطفى في تموز/يوليو 2003، ثم اثر اعتقال الرئيس العراقي نفسه في 15 كانون الاول/ديسمبر 2003، وقد اعلن المحتل يومها انه اسير حرب فاذا به يحال مع رفاقه الى محكمة غير شرعية بكل المقاييس والقوانين، المحلية منها والدولية، وبكل الاتفاقات المعنية بادارة شؤون المناطق المحتلة او بمعاملة اسرى الحرب.

انني اذ خصصت هذا الجزء من حديثي اليوم للإعلام فلأنكم تدركون ان جزءا «رئيسيا» من الحروب والضغوط والمناورات التي تواجهنا اليوم بات إعلاميا، وان العديد من الاعلاميين الاحرار او المخلصين لمهنتهم باتوا امام خيارين لا ثالث لهما، اما الانسياق في خدمة هذه الآلة الاعلامية العظمى التي تقودها دائرة ضخمة في البنتاغون شكلت عشية الحرب على العراق، واطلق عليها دائرة التضليل الاعلامي وخصصت لها المليارات، او ان تلتحق بقافلة شهداء الصحافة الذين بلغ عددهم في العراق اكثر من 40 شهيدا، بدءا بالشهيد طارق ايوب وصولا الى الشهيدة اطوار بهجت مرورا بوليد خالد ناهيك عن اغلاق فضائيات وتفجير مكاتب، وتهديد اعلاميين.

ولقد روى لي احد الاصدقاء العراقيين العارفين بمجريات الامور ان كثيرا من الصور التلفزيونية التي تبث حول الاضرار التي الحقتها عملية المقاومة باحياء في المدن العراقية، انما تكون بالاصل عملية ناجحة ضد قافلة عسكرية امريكية، فيحاصر المحتل المنطقة ويخلي الاليات والاصابات الامريكية، ثم يصور مسرح العملية لتبدو وكأنها استهدفت بالاصل الاحياء المدنية العراقية، وقد دفع هذا التكتيك الاعلامي ببعض تشكيلات المقاومة الى ان تصور عملياتها وتبث الصور، لتواجه عبر مواقع محدودة للانترنت حربا اعلامية سخرت لها الطاقات والامكانات ووسائل الضغط المختلفة، ناهيك عن المليارات من الدولارات ساهمت بتوفيرها مع الاسف حكومات عربية، وبالحماسة ذاتها التي ساهمت بتوفير ظروف نجاح العدوان على العراق، متناسية في كل ذلك، ليس مواثيق الاخوة والمعاهدات الملزمة، بل ان في سقوط العراق وانهياره، لا قدّر الله، سقوطا لدول وكيانات وانظمة عربية واسلامية عديدة في المنطقة.

ويدرك العراقيون جيدا ان الكثير من العمليات التي تستهدف تجمعات مدنية عراقية، وبيوت عبادة على انواعها انما يقف وراءها الاحتلال وادواته واعوانه، بل والموساد الصهيوني الذي دخلت شبكاته العراق مع قوات الاحتلال، وذلك لتحقيق اغراض ثلاثة اولها تشويه صورة المقاومة بعد ان يئس المحتل من القضاء عليها، وثانيها الانتقام من الشعب العراقي الذي تثبت كل الاستطلاعات رفض اكثريته الساحقة للاحتلال، وثالثها التمهيد لحرب اهلية تكون مبررا «لبقاء الاحتلال من جهة ومدخلا» لتقسيم العراق والمنطقة بأسرها من جهة أخرى، وهو التقسيم الذي كشفت الكثير من الوثائق عن انه مشروع صهيوني قديم ألبسته تل أبيب وواشنطن لباس مشروع الشرق الاوسط الجديد او الكبير.

ويتساءل هؤلاء العراقيون، ونحن معهم، بأنه اذا كانت المقاومة فعلا، كما يصورون هي لقتل الشعب العراقي، فمن اين جاءت هذه الخسائر البشرية والعسكرية المتعاظمة في صفوف جيش الاحتلال، وقد بلغت الاف القتلى، حتى في الشهادات الرسمية (وصل الرقم بالامس الى 2562 عسكريا امريكيا وبريطانيا)، وبعشرات الاف الجرحى، حيث اعترف مدير المستشفى العسكري الامريكي في المانيا نفسه ان عدد الجرحى الذين استقبلهم مستشفاه قد بلغ الى اسابيع مضت، اكثر من 16 الف جندي، أكثر من 54 % منهم ـ حسب مصادر البنتاغون نفسه ـ لم يعد صالحا للعودة الى الخدمة العسكرية مرة اخرى.

وفي اكثر التقديرات الامريكية تفاؤلا ان اكثر من ثلث القوات الامريكية في العراق قد خرج من المعركة فعليا اما كقتيل او كجريح او كمريض عقليا ونفسيا (بلغ عددهم اكثر من 600 عسكري) او كفار من الخدمة، حيث بلغ عدد الفارين الى كندا وحدها حوالي اربعة الاف عسكري، بالاضافة الى ثلاثة الاف فروا من الخدمة، ناهيك عن النسبة العالية من الضباط الشباب الذين يتركون الخدمة في القوات المسلحة فور انتهاء عقود عملهم.

ففي مقالة له في «نيويورك تايمز» قبل ايام اعلن توم شنكر ان اكثر من ثلث خريجي عام 2000 من اكاديمية وست بوينت العسكرية الذائعة الصيت، قد تركوا الخدمة الفعلية لحظة انتهاء مدة العقد الذي وقعوه بعد تخرجهم، وكشف ان حوافز عديدة تقدمها القيادة العسكرية لجذب الضباط الشباب الى تمديد عقود الخدمة في الجيش الامريكي.

ولمزيد من الاطلاع على الحالة النفسية للجنود الامريكيين في العراق، نشرت دراسة مشتركة لمؤسسة الزغبي الدولية ولكلية لوموين ان 72 % من الجنود الامريكيين دعوا الى الانسحاب من العراق في مدد لا تزيد عن 12 شهرا، بينهم 29 % دعوا الى انسحاب فوري لهذه القوات.

وفي استفتاءات اجرتها بشكل مشترك جريدة «الواشنطن بوست» مع شبكة A.B.C. للانباء، ونشرتها امس في 2006/4/11، انعكس بوضوح مزاج الجنود الامريكيين في العراق على اهلهم داخل الولايات المتحدة، حيث بلغت شعبية الرئيس بوش الابن ادنى مستوياتها منذ توليه الرئاسة أي 38 % فيما بدا ان اكثر من ثلثي الشعب الامريكي غير راض عن ادارته لشؤون بلاده.

وتبرز اهمية هذه الاستطلاعات انها تأتي عشية الانتخابات النصفية للكونغرس الامريكي حيث سيعاد انتخاب نصف اعضاء الكونغرس، وكل اعضاء مجلس النواب في الخريف القادم، مما قد يؤدي الى فقدان الرئيس بوش للغالبية الجمهورية في المجلسين، والتي تمتع بها حتى الآن في سنوات حكمه منذ عام 2000، ومما قد يزيد من احتمالات لجوء الاغلبية الديمقراطية الى المطالبة باجراءات عزل بحقه (Impeachment) في ضوء اكاذيبه حول حرب العراق، وقضية التنصت، وقضايا الفساد التي غرق فيها كبار مساعديه، ناهيك عن فضيحة تسريب اسم عميلة الاستخبارات الامريكية للانتقام من زوجها السفير الذي رفض ان يشارك في كذبة الادارة حول شراء العراق من النيجر مواد تستخدم في اسلحة الدمار الشامل، وهي الفضيحة التي طالت حتى الان السيد ليبي كبير مساعدي نائب الرئيس ديك تشيني، والذي افاد امام لجنة في الكونغرس بان التسريبات المتهم بها قد جرت بأمر من البيت الابيض.

فهل نحن امام فضيحة «ليبي غايت» شبيهة بفضيحة «واترغيت» التي اطاحت بنيكسون عام 1974، بل هل نحن امام فضائح «عراق غيت» تودي بادارة كاملة نجحت في ازهاق ارواح الامريكيين، وزعزعة اقتصادهم، واعادة العجز الى ميزانيتهم بنسبة 500 مليار دولار (وهو رقم قياسي)، ناهيك عن تصاعد الديون الخارجية الى ارقام مذهلة.

واذا لاحظنا ان نسبة العجز هذه في الميزانية الامريكية تكاد تقارب نفقات الحرب في العراق وافغانستان، التي وصلت الى اكثر من 400 مليار دولار، نستطيع ان ندرك حجم التأثير الذي تحدثه المقاومة العراقية، ومعها المقاومة الافغانية، اساسا داخل المجتمع الامريكي.

ومن يتابع وسائل الاعلام الامريكية، خصوصا عشية الذكرى الثالثة لاعلان الحرب العدوانية على العراق وبعدها، ومن يواكب مسلسل الكتب الامريكية التي تصدر تباعا عن هذه الحرب، ومن يقرأ التقارير الصادرة عن مراكز الدراسات الامريكية لا سيما معهد بروكينغز، وتقارير اللجنة الدولية للازمات، وشهادات الخبير الاستراتيجي توني كوردسمان امام الكونغرس الامريكي، يدرك حجم الزلزال الذي احدثته المقاومة العراقية، داخل الادارة الامريكية، وداخل المجتمع الامريكي على حد سواء، لكن ما ينبغي التوقف عنده هو شهادة ثلاثة من كبار الضباط الامريكيين حول هذه الحرب.

ففي المقابلة التلفزيونية التي جرت في 2 نيسان/ابريل الحالي مع الجنرال انتوني زيني الذي كان قائدا للقيادة المركزية للقوات المسلحة الامريكية قال: «ان وزير الدفاع رامسفيلد، مع آخرين، ينبغي مساءلته ومحاسبته عن العديد من الاخطاء التي ارتكبت في العراق وانه عليه ان يتنحى».

* كاتب وسياسي من لبنان

التوبة في السياسة ما أعظمها:

قراءة في معاني هجوم بعض المعارضة السورية على خدام

محمد الحسناوي*

■ العلوم الإنسانية ـ كالاقتصاد والسياسة ـ ليست علوماً حقيقية بحتة كعلوم الفيزياء والطبيعة، لأن العلوم الإنسانية موضوعها الإنسان، والإنسان غير الجماد والنبات والحيوان من حيث: الإرادة والعقل، مما يتيح للإنسان هوامش أكبر في التصرف والتنكر أو الاحتيال، ومما يعجز عن ضبطه الباحث العلمي بالموازين أو المقاييس أو الاستفتاءات أو التحاليل المخبرية، انتهاء إلى وضع القواعد والقوانين المضطردة. ولذلك كان ادعاء نظرية (الماركسية) فيما مضى أنها (علم) أحد مقاتلها، والمآخذ عليها، حتى اتضح ذلك بسقوط المنظومة الاشتراكية، فتراجعت (الماركسية) بشكل مريع على صعيد النظرية والتطبيق. ومحور ضعفها (تصورها أن الإنسان آلة) لإخضاعه للعامل الاقتصادي، أو تفسير التاريخ من الوجهة (المادية) وحسب! وبذلك تسقط عوامل الإنسان الفاعلة ـ كالشجاعة والنخوة والكرم والتضحية ـ من الحساب، ومثل ذلك الرغبات والمثل العليا والقيم والجانب المعنوي من عالم الإنسان، ولم نقل (الروح).

إذا انتقلنا إلى ساحة التطبيق مثل تحول شخصية سياسية من تيار سياسي إلى تيار آخر، أو من جانب السلطة الحاكمة إلى جانب المعارضة لتلك السلطة، كانتقال السيد عبد الحليم خدام نائب الرئيس السوري السابق، تجد الناس ينقسمون إلى مؤيد لهذا التحول أو الانتقال و إلى معارض له، وبين مطمئن إليه أو مشكك فيه، وهنا لا تدخل العوامل الموضوعية والذاتية لدى موضوع التحول (من نية واستقامة أو قناعة أو حسابات سياسية واجتماعية) وحسب! بل أيضاً العوامل المتحكمة بالباحث نفسه، وإلى أيّ حدّ يخضع للهوى أو العقل أو المذهب السياسي أو الانتماء، ومدى تخلصه منها كلها أو بعضها.

من الظاهر ومن المتوقع أن تكون كل السلطة السورية ومن يتبعها أو تحت قهرها يخطّئون السيد خداماً، وكل من في المعارضة يرحبون بهذا التحول، والواقع الحالي ليس كذلك، فمعظم من في السلطة قد يكونون كذلك، ولكن لو كان الوضع السياسي السوري شفافاً، بمعنى أن الناس من رسميين ومواطنين شعبيين مطلق الحرية والإرادة، هل يكونون على (دين النظام) آلياً، ولو كان الأمر كذلك لما كانت عملية (الردح) فيما يسمى مجلس الشعب، ورفع الدعاوى القضائية على ماضي الرجل الذي لم يكن مسموحاً الاقتراب منه طوال أربعين عاماً مضت، والآن يتمّ تعميم العقوبة أو إجراءات العقوبات عليه وعلى أقاربه أيضاً، وليس شخصه وحده، خلافاً للقانون ولمطالب المعارضة في الماضي.

خذ مسألة من المسائل يظن أنها شائكة عند بعضهم، وهي مسألة الاعتذار عن الماضي، ألا يكفي انتقال الرجل من موقف إلى موقف مضاد حتى يكون اعتذاراً؟ بعضهم يشدد أكثر، ويضيق الشروط فيطالبه بالاعتذار عن إسهامه في عهد الأسد الأب، وها هو ذا قد انتقد الأسد الأب في رسالته التي وجهها (إلى البعثيين بمناسبة ذكرى تأسيس الحزب (في2006/4/9) (وكالات الأنباء) يقول: (فهو نظام عائلة استأثرت بالسلطة، وأحكمت الظلم والفساد. ومن الأخطاء الكبرى للرئيس حافظ الأسد أنه كرس حكم العائلة، فغلبت عاطفته مسؤولياته كرئيس للدولة، وكان قراره بالتوريث تكريساً لحكم العائلة وخروجاً عن كل القيم السياسية والحزبية في سوريا).

وهناك من المتشددين في شروط انتقال السيد خدام، فيطالبه أن يعترف بالخطأ على نفسه أو بالذنوب التي ارتكبها هو، أي لا الاكتفاء بانتقاد غيره، وهاهو السيد خدام يقول ذلك، فكان استعجال المستعجلين عليه خلافاً للعمل السياسي البصير، يقول الرجل في الرسالة نفسها إلى الحزبيين: (أقول لكم بكل صدق وصراحة وشعور بالمسؤولية: إننا في قيادة الحزب عند مناقشة الدستور ارتكبنا خطأً فادحاً في وضع نص المادة الثامنة التي تقول: إن حزب البعث العربي الاشتراكي يقود الدولة والمجتمع، وبذلك أغلقنا الباب أمام بناء نظام ديموقراطي كثيراً ما ناضلنا لتحقيقه).

والحقيقة إن رسالته هذه للحزبيين حافلة بالتقويم الانتقادي لتجربة الحزب الحاكم التي أسهم فيها السيد خدام طوال أربعين عاماً، وفيها ردود مباشرة وغير مباشرة على كل الذين تناولوا تحوله بالنقد والتشكيك، كما فيها دروس (رفاقية) للبعثيين الحقيقيين (داخل السلطة وهم قليلون) و(خارج السلطة وهم كثيرون)، نلفت النظر المعنيين إلى أهمية دراستها، ونقدر أنها أقوى وثيقة في الموضوع الذي نحن بصدده من المقابلات التلفزيونية والصحفية. وكان واضحاً من اللحظات الأولى لتحول أبي جمال نقده للتدخل الأمريكي في القطر العراقي، ورفضه تكرار المأساة، وتحديده الجرائم الكبرى التي اقترفت بأمثلة منها (إقصاء حزب البعث وحل الجيش العراقي الوطني)، بما يعني أن هذه الأمور مرفوضة أيضاً على الساحة السورية (التدخل الأجنبي مضافاً إليه إلغاء الجيش وحزب البعث).

في عام 2003م نشر عبد الحليم خدام في الدار البيضاء ـ المغرب عن المركز الثقافي العربي .. كتاباً بعنوان (النظام العربي المعاصر: قراءة الواقع واستشفاف المستقبل) وفيه رسائل للمعارضة السورية وللرأي العام العربي بالذات، ولكن من احتفل بذلك؟ بل من كلف نفسه الاطلاع عليه؟ على العكس إن الذين اطلعوا عليه أو استمعوا لمحاضرات منه في (الكويت) ذهبوا إلى أن نائب الرئيس السوري يخادع القراء والمواطنين السوريين والرأي العام، حين يقول الحق ويمارس خلافه، ولم يخطر ببالهم أن الرجل كان يعيش تجربة الازدواجية في السياسة العربية، التي يصر عليها المجانين والمنافقون حتى الموت أو الانهيار، أو التي يخرج منها أصحاب الإرادة والضمير متأخرين أو غير متأخرين. وفي هذه الحالة يأتي دور المحللين المتمكنين والحريصين على المصالح العامة لا الثأر واحتكار الصواب والمزايدات، للتعاطي مع هذه الحالة التي تفتك بمجتمعاتنا وأنظمة دولنا، وهي ليست يتيمة ولا جديدة في تاريخنا ولا تاريخ المجتمعات البشرية، وسببها الأول والأهم هو (الاستبداد) وافتقاد الشفافية وتداعياتها في الفرد والمجتمع على حدّ سواء.

كلنا يذكر تحول الناس في صدر الإسلام إلى الإسلام جماعات وقبائل وأفراداً، كما نذكر قول الرسول المفصلي في فتح مكة: (من دخل بيته فهو آمن، ومن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن) وقوله لما اجتمع أهل مكة يخطب بهم بعد أن عاد إليهم فاتحاً منتصراً وبعد الهجرة والمطاردة والاضطهاد: (ما تظنون أني فاعل بكم. قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم لطلقاء). لكن لماذا لا تفعل مثل هذه الصفحات المشرقة في حياتنا اليوم؟ أهي الأنانية أم الجهل أم الغفلة، أم الإصرار على استيراد الأفكار والسياسات والتنظيرات؟ أم الاستهتار بخبرات هذه الأمة وبرصيدها الفكري والحضاري؟

مرة أخرى لم تكن هذه المسألة يتيمة في تاريخنا ولا في تاريخ الأمم الأخرى، فعمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي تحول بالخلافة تحولاً يعبر عنه هذه الأيام بالانقلاب الأبيض، ومن قبله المرشح للخلافة معاوية بن يزيد حين استشار شيخه العالم، فقال له: إن كنت لا تستطيع العدل فاعتزل، وقد اعتزل الخلافة، وتركها لغيره، أو لم يحمل أوزار الظلم ومفرداته، وقد استشهد بهذه الواقعة المعارض السوري البارز الأستاذ رياض الترك بعد خروجه من سجن الرأي، ومطالبته النظام السوري بالإصلاح وبمناسبة توريث الرئيس الجديد، وكانت آخر مطالباته استقالة الرئيس وحكومته للبدء بصفحة جديدة في تاريخ سورية وإنقاذها.

وفي تاريخنا الحديث اعتزل المشير عبد الرحمن سوار الذهب رئاسة الدولة العسكرية بعد انقلاب الجيش السوداني على استبداد النميري، وأتاح المجال لغيره وللشعب من أجل تأسيس حياة سياسية ديموقراطية.

وها هو ذا كل من النظامين الحاكمين في (المغرب العربي) و(الجزائر) يقودان (مصالحة وطنية) مع شعبيهما في ميدان حقوق الإنسان، والتخلي عن سياسات القمع والاستبداد وإعادة الحقوق لأصحابها، وهذا خيار متاح للأنظمة العربية الشمولية، ولا سيما النظام السوري. ولا ذريعة يعتدّ بها حول الضغوط الخارجية والظرف الصعبة، بل إن هذه الضغوط الخارجية والظروف الصعبة، هي التي تقتضي مثل هذه التحولات والانعطافات التاريخية، من باب إعادة المياه إلى مجاريها الطبيعية، أو إعادة السياسة إلى الشعب صاحبها الحقيقي، وهي أيضاً في الوقت نفسه ورقة الإنقاذ الوحيدة من المخاطر كلها، الخارجية والداخلية على حدّ سواء. ومن هذا الوجه تنظر المعارضة السورية الراشدة والمحللون المتمكنون إلى تحول السيد خدام وأمثاله من صف السلطة إلى صف المعارضة.

عوداً إلى كتاب السيد خدام: (النظام العربي المعاصر: قراءة الواقع واستشفاف المستقبل) أقل ما يقال في توصيفه وتقويمه اليوم أنه منهاج نظري لما يمارسه الآن الرجل بعد تحوله من السلطة أو المعارضة، في محاوره الثلاثة: (النظام العربي في فترة الحرب الباردة ـ المشروع الصهيوني ـ المشروع القومي العربي)، ففي المحور الثاني يرى أبو جمال: (أن مواجهة المشرع الصهيوني لا تتم عبر التنازلات المتتالية، ولا الخضوع للضغوط الخارجية، وإنما بالرؤية الشاملة لطبيعة الصراع وحقيقته، ومراجعة بنية النظام العربي الراهن، وبناء نظام عربي جديد على أسس جديدة، والتركيز على تنمية الوعي السياسي، وإدراك الأخطار التي تهدد الأمة العربية، وتنمية حركة شعبية عربية تكافح المشروع الصهيوني وسياسات الهيمنة الأجنبية، وتوفير متطلبات تحقيق توازن القوى في المنطقة في المجالات السياسية والعلمية والاقتصادية، بالإضافة إلى توفير متطلبات الدفاع).

وفي المحور الثالث يرى (أن التفكير المستقبلي في المشروع القومي يمكن أن يقوم على المباديء التالية:

1 ـ الإبقاء على مبدأ الوحدة العربية ولكن بوسائل متدرجة وشبكية، والعمل وفق مبدأ المشاركة بما يعنيه ذلك من تنازلات من جميع الدول.

2 ـ تحديد مفهومي الأمن الوطني والقومي والعلاقة بينهما.

3 ـ العمل المشترك في مستويات السلطة الثلاثة: التنفيذية والتشريعية والقضائية.

4 تحديد الأهداف الاقتصادية والاجتماعية.

5 ـ تطوير الأنظمة السياسية نحو مشاركة شعبية واسعة وفعالة.)

البنود التي شددنا عليها باللون الأسود كافية للدلالة على تحول فكر الرجل من سلطة إلى معارضة، وعلى الأخص حديثه عن (تطوير الأنظمة السياسية نحو مشاركة شعبية واسعة وفعالة)، لكن لماذا لم يلتفت الناس إليها قبل تحوله، ولماذا أحدث تحوله هذا السجال الواسع؟

أما الجواب على التساؤل الأول فقد صار معروفاً، أما الجواب على السؤال الثاني، فهو أن الناس تهتم بالممارسات لا بالأقوال، ولاسيما المواطن السوري والعربي والإسلامي المسحوقين تحت وطأة الأنظمة الشمولية الاستبدادية، وقد ملوا الازدواجية بين الأقوال والأفعال، حتى ظنوا أن الازدواجية جزء لا يتجزأ من السياسة، وكان ذلك أحد أسباب انصرافهم عن السياسة.

وفي ذلك درس آخر للمعارضة السورية، مفاده أن الاكتفاء بالشعارات والبيانات التنظيرية لا تغني في عملية التغيير، فجبهة (إعلان دمشق) التي توافق عليها أكبر طيف سوري معارض لم تخط بعد إعلانها خطوات عملية، مثل تشكيل قيادتها ومؤسساتها، ولا رسمت خطوات متدرجة أو عملية للتغيير، على حين خطت (جبهة الخلاص الوطني) خطوات عملية أكثر، على الرغم من اعتبار نفسها جزءاً لا يتجزأ من (إعلان دمشق). وإذا استمر البطء في سير (إعلان دمشق) والتحرك في خطوات (جبهة الخلاص) فإن (الفرع) سوف يحل محل (الأصل) وليس هو المطلوب.

إن تحول السيد خدام كان فعلاً اختباراً لفكر المعارضة السورية وممارساتها في الداخل والخارج، فبدلاً من توظيف هذا التحول إلى ظاهرة تفتح الباب واسعاً للمقموعين من رجال الحزب والسلطة، أو الراغبين الحقيقيين في التغيير مع المعارضة أو حتى بموازاتها، اشتغل فريق من المعارضة بالتشكيك أو التعطيل لخطوة السيد خدام المتميزة، مما أتاح للنظام اللعب بين الخطوط والادعاء بانقسام المعارضة أولاً والإخوان المسلمين ثانياً، وبالتالي الزعم بضعف المعارضة، وهذا ما سوقته أجهزته الإعلامية والأمنية، وحتى ما قيل لسجناء الرأي من الإخوان المسلمين في الداخل ومطالبتهم بالانشقاق وبإصدار بيانات تنديد في ذلك!! ولعل النظام صدّق لعبته!

وقد فطن الدكتور برهان غليون إلى (إشكالية المعارضة السورية بين الداخل والخارج)، مما يتيح للنظام أن يلعب ألعابه الخطرة، فليس كل مواطن سوري يقدر الظروف التي تعوق عمل معارضة الداخل أو تحدده أو تؤثر فيه. وبين كتابة الدكتور غليون مقالته المذكورة وبين ما فعلته الآلة السلطوية من زمن، وبين حجم المتاح الإعلامي للمعارضة وللسلطة من فروق كبيرة.. تلعب السلطة أيضاً ألعابها المعلومة.

ومع ذلك في النهاية لن يصح إلا الصحيح، وفي السياسة وفي الحياة ـ كما في الحرب ـ كرّ وفرّ، والعبرة في الخواتيم.

* كاتب سوري، عضو رابطة أدباء الشام

في شعار «الإسلام هو الحل»

إدريس الكنبوري*

■ ليس هناك شعار استطاع تأجيج المشاعر الدينية للمواطن العربي المقهور من المحيط إلى الخليج مثل شعار «الإسلام هو الحل» الذي أثيرت من حوله الكثير من الزوابع في فترة من الفترات، حتى أصبح عملة مسكوكة صالحة للرواج في جميع الأسواق، ومع تكراره والإصرار عليه ووضعه في إطار من القداسة التي أضفاها البشر عليه ليعد أحد يجرؤ على التشكيك فيه وتمحيصه من دون أن يوضع مباشرة في الصف الآخر التي تكال له الشتائم.

لقد كاد الناس ينسون هذا الشعار في السنوات الأخيرة بفعل التطورات الفكرية والانفتاح الثقافي وانتشار المعرفة في العالم العربي وتقلص نسبة الأميين الذين كانوا بالأمس يصفقون لأول من طلع على المنبر، غير أن الانتخابات المصرية الأخيرة عادت لتحييه مجددا بعدما طواه النسيان وصار جزءا من الأدبيات القديمة للإخوان المسلمين، ثم ذكرت به الانتخابات الفلسطينية التي فازت فيها حركة المقاومة الإسلامية ـ حماس. وإذا كان لإخواننا في فلسطين مبرراتهم في رفع هذا الشعار بسبب حالة المواجهة الخاصة مع الصهاينة ووجود تأصيل قرآني للصراع، فإن الإسلاميين في مصر أو في أي مكان آخر لا يملكون مبررا لرفعه في قبالة سياسيين آخرين لهم حظهم من القرب أو البعد من الأصول الإسلامية ضمن مساحات اجتهادية تضيق أو تتسع، آية ذلك أن لا أحد من الإسلاميين يجرؤ على تكفير الآخرين من الفرقاء السياسيين، من تم فإن إعلان شعار «الإسلام هو الحل» يعد تكفيرا مقلوبا أو مهذبا، أي إخراج الآخر من الملة من دون اتهامه بالزندقة علنا.

أثير شعار «الإسلام هو الحل» في فترة زمنية خاصة في مصر وبعض بلدان المشرق العربي، تميزت بالمواجهة بين القطبين الرأسمالي والاشتراكي، وكان تعبيرا عن التميز وسط تلك التقلبات اتضح جيدا مع الشعار القائل «لا شرقية ولا غربية»، أو لنقل إنه كان بمثابة حركة عدم انحياز فكرية وإيديولوجية انطلاقا من الدين، أملتها العاطفة الدينية للمسلمين أكثر مما فرضتها العقلانية الفكرية، إذ لم يواكبها اجتهاد معاصر يجدد العلاقة مع الإسلام بعد ردح من التسلط العثماني والتحجر الفكري وانسداد باب الاجتهاد، كما أن الذين رفعوا ذلك الشعار كانوا ممن أعلنوا القطيعة المعرفية والمنهجية مع فكر جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا، الثلاثة الذين كان من الممكن أن يشكلوا بداية حركة تجديد واسعة في الفكر الإسلامي الذي تحول إلى مجموعة من النقول والحواشي والاستعادة السلبية لتراث الأموات، وبكلمة أخرى، لقد كان ذلك الشعار مجرد يافطة لإثبات الحضور في معمعان العراك الحضاري للمسلمين الخارجين لتوهم من لحظة غياب تاريي طويلة.

إن شعار «الإسلام هو الحل» عندما طرح مع جماعة الإخوان المسلمين في مصر كان شعارا سياسيا أرادت منه الجماعة تمييز نفسها من جهة، وتأكيد نوع من العلاقة مع زمن السلف الصالح من جهة ثانية، ولم يعكس أي حالة من التطور الفكري والإنتاج الثقافي والسياسي والتجديد الفقهي يجدد طريقة فهم الدين وكيفية تنزيله في الأحداث، خاصة وأنه كان موجها إلى السلطة بوجه الخصوص وليس إلى الأمة، الغرض منه القول بأنه تم تجريب جميع الإيديولوجيات ولم يبق سوى الإسلام الذي يتضمن جميع الحلول لجميع الأقضية، وهكذا أصبح ذلك الشعار خاصية مميزة للإسلاميين في كل مكان، على اعتبار أن الحركات الإسلامية في العالم العربي خرجت كلها من معطف الإخوان في مصر، إلى هذا الحد أو ذاك، فلم يعد من الممكن عدم رفع ذلك الشعار الذي صار عملة مسكوكة صالحة للتداول لدى الجميع.

والحقيقة أن شعار «الإسلام هو الحل» كان بمثابة حالة ارتداد كبرى في تاريخ الإسلام المعاصر أكثر مما كان انعكاسا لحالة امتداد نحو التعاطي المتجدد مع قضايا الأمة. لقد كان إجابة خاطئة على أسئلة صحيحة طرحت في ما يصطلح عليه بعصر النهضة العربية، فتم تقليص جميع مشكلات الأمة إلى المشكلة السياسية، وسرعان ما قلصت المشكلة السياسية إلى مشكلة الحكم والسلطة، وأصبح الإسلاميون ينظرون إلى هذه الأخيرة كأنها مفتاح كل خير ومغلاق كل شر، حتى إن احد قادة العمل الاسلامي لم يتردد في تأويل الحديث النبوي الشهير «ألا إن في كل جسد مضغة إذا صلحت صلح سائر عمله وإذا فسدت فسد سائر عمله» والتي عرفها بأنها هي السلطة في حالة المجتمع، والتي عليها يتوقف صلاح المجتمع أو فساده. أما النتيجة التي كان من المنطقي أن تقود إليها هذه الاختزالية فهي استبعاد المجتمع من صيرورة التغيير، عدا اعتباره مجرد مطية يتم الركوب عليها للوصول إلى مقعد الحكم، ومن هنا كان من الطبيعي أن ينشأ ذلك التشوش والتناقض في فهم الإسلاميين للديمقراطية، أي باختصار وضع الشعب في الحساب في معادلة الوصول إلى السلطة.

لقد أدى ترويج شعار «الإسلام هو الحل» وتكريسه في الذهنية الإسلامية إلى مجموعة من الانزلاقات الفكرية التي قادت في النهاية إلى تسييج الإسلام كدين واسع وعميق ومتعدد الأبعاد في إطار ضيق، من هذه الانزلاقات الشعار الآخر الذي يقول إن «الإسلام دين ودولة»، والذي لم يكن في أصله سوى تنويعا على الشعار الأول، كونه يتلاقى معه في العمق، وهو التأكيد على مركزية الدولة في فكر الإسلاميين. وقد حصل هذا الانزلاق الخطير في فهم الإسلام بعد التحريف الذي خضع له شعار «الإسلام دين ودنيا» الذي يعبر عن حقيقة الإسلام وشموليته، ولكنه لا يحدها في الحكم أو السلطة، وإنما يوسعها لتشمل سائر مناحي الحياة، ولكن الإسلاميين اختزلوا الدنيا كلها في الحكم، بعد أن اختزلوا الإسلام كله في أنفسهم هم، فأصبحنا أمام استعادة تاريخية لعص